صور من القرن الثامن عشر

٤ ـ جاكومو كازانوڤا

جوّاب مجتمع ومغامر مرح

خاتمـــة البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

والآن وقد استعرضنا سيرة ذلك الجوّاب المرح والمغامر الجريء ، نحاول أن نستعرض جوانب شخصيته ومناحي نفسه ، وأن نقرأ في حوادث حياته لمحة من خلال العصر الذي عاش فيه :

كان القرن الثامن عشر عصر تطور فكري واجتماعي عميق ، وكان أيضاً عصر انحلال فكري واجتماعي ، وكان المجتمع الأوربي القديم ينحدر يومئـذ إلى نوع من الخمول والدعة ، ويجنح إلى تذوق متاع الحياة المـادي بكل ما وسع من رغبة وهوى ؛ وكان كازانوڤا يمثل روح عصره وخواص عصره ، بل كان يمثل رذائل عصره أتم تمثيل وأصدقه ؛ وكان يمثل بالأخص الجانب المـادي من هذه الخواص والرذائل ، فكانت خلاله مزيجاً من الاستهتار والمرح ، والجرأة والطموح ، والعزم والخمول ؛ وكانت غاية الحياة عنده هي الحياة ذاتها بما فيها من متاع ولذائذ وترف . كان كازانوڤا يحب الحياة حباً جماً ، وهو يصفها في مذكراته « بأنها هي الشيء الوحيد الذي يملكه الانسان حقا » ، ويشبهها « بغانيـة حسناء يعشقها الانسان ، ويهبها ما شاءت ما دامت باقية عليه » ؛ وهذه الفلسفة المـادية المحضة هي التي تفسر حياة كازانوڤا وتوجهها

وهذه النظرة المـادية إلى الحياة ، وهذه الفلسـفة المستهترة المرحة ، وهذه الخواص السقيمة المنحلة ، تقدمها إلينا مذكرات كازانوڤا بصورة بارزة ؛ والواقع أن هذه المذكرات الشهيرة التي تشغل عدة مجـلدات كبيرة ، إنمـا هي صورة قوية جامعة لمجتمع القرن الثامن عشر وخواصه وفضائله ورذائله ؛ وهي ليست قصة كازانوڤا فقط ، ولـكنها قصة جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية في هذا العصر ؛ ففيها نرى حياة المغامر الجريء ، والمشموذ الأفاق ، والعاشق المضطرم ، والسيد المنعم ، والشريد البائس ؛ وقد كان كازانوڤا كل أولئـك ، وكان له كل خلالهم ورذائلهم ، وهؤلاء جميعاً يملأون فراغ حياته

وهـذه المذكرات الشهيرة هي أسطع ما في حياة كازانوڤا ، وهي التي خلدت ذكره . ذلك أن كازانوڤا لم يكن في ذاته شخصية هامة ولم يكن من رجال التاريخ ، ولـكن حياته العجيبة تقدم إلينا مزيجاً مدهشاً من الفلسفة المـادية والاجتماعيـة يستحق الدرس لذاته ؛ وقد عنى في أواخر أيام حياته أن يدون سيرته بكل ما فيها من حوادث مدهشة ، وفلسفة مرحة ، وفضائح مزرية ، وكل ما فيها من شذوذ وخبائث . وقد رأيناه في أواخر حياته يستقر في قصر دوكس ، في ذلك المقام النائي المنعزل ، ويقطع أوقاته بالقراءة والـكتابة ؛ وكان كازانوڤا أديباً مفكراً ، حسن البيان والأسلوب ؛ وكان تدوين سيرة حياته أعظم عزاء له في شيخوخته ؛ فقـد كانت هذه الصحف الممتعة تحمله من ذلك القصر النائي ، ومن غمار الشيخوخة والعزلة والبؤس ، إلى المـاضي الباهر ؛ إلى الأيام الخالية بكل ما فيها من متاع وترف ، إلى أمسية الحبور والمرح ، إلى المدن والمجتمعات التي جابها ، وإلى مختلف النساء اللائي ظفر بهن . وكان أثناء حياته الحافلة قد جمع كثيراً من المذكرات والمواد لـكتابه ، ومنها رسائل من أصدقائه وصاحباته ، ومذكرات كان يدونها على الأثر ، هذا إلى ما تعيه ذاكرته القوية من الحوادث والتفاصيل

وقد بدأ كازانوڤا كتابة مذكراته في سنة ١٧٩١ ، واستمر في كتابتها عدة أعوام ، ولبث يستعيدها ويهذبها حتى سنة ١٧٩٨ ، قبيل وفاته بأشهر قليلة ؛ وكان يكتبها بشغف وتأثر ، إذ كان يرى تلك الحياة الساطعة الذاهبة تمر أمام عينيه وتبعث إليه ذكريات المجد والصبا ؛ وكان يعتزم إصدار الجزء الأول منها منذ سنة ١٧٩٧ ، ولـكن الموت عاجله ، ولم يتح له تنفيذ أمنيته

ولم تظهر مذكرات كازانوڤا الا بعد وفاته بحين ؛ وكان ظهورها حادثاً أدبياً كبيراً . ذلك أنها لم تكن قياضة بالسير العجيبة

فقط ، ولكنها كانت أيضاً قطعة فنية بديعة تنعكس عليها جميع أحوال العصر الذى عاش فيه صاحبها ، أعنى القرن الثامن عشر ، وجميع صوره وأحوال مجتمعه . وتشغل هذه المذكرات المتعة عدة مجلدات كبيرة ، وهى عمدتنا الأولى فى سيرة كازانوفا وفى تفهم نفسيته وخلاله ، وفيها يقص حياته منذ مولده بإفاضة ، ويستعرض جميع وقائعه ومغامراته الغرامية مع نساء العصر من كل الطبقات ، ويصف رحلاته العديدة إلى مختلف البلاد ، ويصف لنا مجتمعات العصر وأحواله وأخلاقه وعاداته ؛ كل ذلك بقوة وإفاضة وبيان شائق ؛ وقد كان كازانوفا فى الواقع رحالة عظيما ، وكان يتمتع بمواهب بديعة فى الملاحظة والدرس والوصف وفى تفهم عقليه الأفراد والطبقات ؛ هذا إلى خيال خصب يسبغ على قصته كلها طابعاً من السحر ؛ وقد يطبع بعض أقواله ومزاعمه أحيانا طابع من المبالغة ، ولكن ذلك لا ينتقص من متاع قصته وسحرها

وقد لفتت مذكرات كازانوفا منذ ظهورها فى أوائل القرن التاسع عشر أنظار النقد الأدبى ، فنوه بعض النقدة بقيمتها الأدبية ، وحمل عليها البعض الآخر ؛ وأبدى سانت بيف أستاذ النقد نفسه عطفه عليها وعلى مؤلفها ذلك المحب الأمثل الذى لم يسمح قط للمرأة بأن تسوده ؛ ولكن جول جانان وهو ناقد آخر يحمل عليها ولا يرى فى مؤلفها سوى دعى أفاق تحدوه شهوات مضطرمة ؛ وكذلك يرى فرانسوا ماسون فى كتابه عن « الأب برنى » أن هذه المذكرات ليست سوى مزيج من الأكاذيب المزرية ؛ بيد أن النقد المعاصر يرى فى مذكرات كازانوفا أثراً جديرا بالتقدير ، ويرى فى صاحبها شخصية جديرة بالعطف رغم عيوبها ومثالبها ؛ ومن ذلك ما يعلق به مسيو أوكتاف أوزان على المذكرات فى فصل نقدى كتبه فى هذا الموضوع : « لماذا ننحى باللوم على ذلك المحب المعاصر للويس الخامس عشر ، لأنه أرانا وعرض علينا خلال عصره المنحل ، وهى خلال كانت تمتنقها أعظم الشخصيات التى كتب عنها ؟ وهل يحق لنا أن نمن فى الانتقاص من ذلك السرور الذى يتحفنا به عند قراءة « المذكرات » ، وأن نحمل على تلك الأخلاق الفردية المثيرة ؟ ... إن كازانوفا لم يكن أفضل ولم يكن أسوأ من أعظم الشخصيات التى ظهرت على مسرح العالم فى القرن الثامن عشر » (١)

* * *

ونقدم الينا هذه المذكرات الحافلة المتعة كازانوفا فى جميع صوره ومناحيه ؛ فى صورة المحب المضطرم الذى يطارد المرأة بكل ما وسع من شغف وجوى ، ويأسرها بظرفه وسحره ، ويظفر بها فى كل المواطن ؛ وصورة المغامر الجرئ الذى يتسلح بذكائه وخبثه ومزاعمه ليغزو المجتمع ويعيش على هامشه بأى الوسائل ؛ وصورة السائح المتجول الذى يجوب أوربا من أقصاها إلى أقصاها باحثاً عن المال والمتاع أنى استطاع ؛ وصورة السيد الذى ينعم بالمال والثراء ، أو صورة الشريد الذى لا يملك قوت يومه ؛ وأخيرا صورة المفكر الأديب الذى يلتمس النسيان فى القراءة وتسطير الماضى

وتبدو صورة المحب المضطرم فى شخصية كازانوفا كل صوره الأخرى ، وهى بلا ريب أبرز صور حياته كما هى أبرز الصور فى مذكراته . أجل كان كازانوفا محباً شغوفا ملتهب الجوانح ، وكانت المرأة عنده غاية الغايات ، وقد حبته الطبيعة كما أسلفنا بكل ما ينبغى أن يتسلح به المحب الظافر من خلال وصفات خلابة ، وبندر أن نجد بين غزاة المرأة من غص بالظفر فى هذا الميدان كما غص به كازانوفا ، وما زال اسم كازانوفا إلى يومنا لقب المحب الظافر ؛ ولقد كان كازانوفا مادياً فى حبه كما كان فى سائر وجهات حياته ، ولم تكن العاطفة عنده شيئاً مذكورا ، وكان غلباً فى الحب لا يكاد يظفر بغزو حتى يسعى إلى غزو آخر ، وكان يرتفع فى طموحه إلى أرفع البيئات والشخصيات ، وينحط إلى أسفل البيئات والمواطن ، فنراه يظفر بطائفة من أكابر السيدات فى جميع المجتمعات التى تقلب فيها من نبيلات ونسوة متزوجات وممثلات ومغنيات وغيرهن ، ونراه يهبط أحياناً إلى مجتمع الشعب المتواضع فيغزو عاملة أو خادمة ؛ واليك مثلاً مما يقصه علينا فى مذكراته مما يوضح فلسفته فى الحب ، ففى ذات يوم كان ينتظر جياداً لمركبته فى طريق رومه ، فمرت به عربة تحمل مغنية حسناء ذائعة الصيت يومئذ ، وكان كازانوفا يعشق المغنيات والممثلات بنوع خاص ، ولكنه يقول لنا : « ومع أنها كانت فتية وكانت

(١) وقد ترجمت مذكرات كازانوفا من الايطالية الى معظم اللغات

حسناء ، فانها لم تثر فى نفسى رغبة ما ، ذلك أنها كانت حسناء جداً ، بادنة جداً . ولكن خادمتها كانت بالعكس فتاة سمراء ساحرة ذات قد ممشوق وعينين وضاءتين ، فوقعت فى حبها على الأثر »

ويذكر لنا كازانوفا فى مذكراته عشرات وعشرات من النساء اللائى ظفر بهن خلال حياته الغرامية الحافلة . وهو تعداد لا يتسع له المقام هنا ، وقد ذكرنا فيما تقدم طائفة من الأسماء التى غزاها ابان ازدهار مغامراته ؛ والظاهر أن كازانوفا لم يتأثر فى حياته بحب امرأة وسحرها قدر ما تأثر بحب راهبة حسناء من « ميران » يرمز لها فى مذكراته بحرفى « م . م » ؛ وهو يصف لنا روعة قوامها وروعة جمالها بحماسة مؤثرة ؛ وقد كانت م . م فى الواقع امرأة ساحرة الخلال تضطرم شغفاً وجوى ، وكانت تخفى تحت ثيابها الكهنوتية نفساً ناعمة توافة ملتهبة ، وكانت تقتحم أروع الأخطار لتحيا تلك الحياة المزدوجة ؛ حياة التقشف فى الدير ، وحياة اللهو والقصف خارج الدير ؛ وبينما ترى بالنهار فى ثياب راهبة محتشمة ، إذا بها تسطع بالليل كالحلية فى مرقص أو منتدى وتبدو بفائق حسنها وأناقتها كل حسناء أخرى ؛ وقد كانت تطلق العنان لشهواتها المضطرمة ماشاءت ، ولكنها كانت قوية النفس تضبط هواها متى وجب ؛ ويصورها كازانوفا بأنها المحبوبة المثلى فى حسنها وفى خلالها وسحرها ؛ وقد ترك هواها فى نفسه بلا ريب أعمق الآثار وأبقاها

ثم يأتى بعد صورة الحب ، صورة السائح ؛ وقد كان كازانوفا سائحاً عظيماً يجوب أرجاء القارة بلا انقطاع ؛ وكان يعشق التجوال فى عصر كان السفر فيه مشقة حقيقية ؛ وقد رأيناه يجوب أرجاء القارة مراراً ؛ وكان كازانوفا يجد فى السفر لذة عظيمة ، ويتخذ أثناء تجواله مظاهر السيد العظيم فيستأجر أفخر المركبات والجياد ، وينزل فى أفخم الفنادق ، وينثر المال والعطاء من حوله ، ولكنه كان فى رحلاته مغامراً ، لا تغريه سوى رغباته وأمانيه ، ولا تغريه مشاهد الطبيعة الرائعة ؛ ولهذا نراه فى مذكراته يعنى بسرد مغامراته أثناء الطريق ، وسرد ملاحظاته عن الأشخاص والحياة والنساء بنوع خاص ؛ وقلما نراه يعنى بوصف البلاد أو مشاهد الطبيعة ؛ بيد أنه يبدى فيما يصف من أحوال المجتمعات والأشخاص دقة تدل بقوة ملاحظته وحسن أدائه

ويقدم كازانوفا إلينا خلال حياته صورتين قويتين متباينتين ؛ فنراه إما سيداً كبيراً ينعم بالجاه والثراء ، وإما شريداً بائساً يتخبط بين براثن الفاقة ؛ وفى الحالة الأولى نراه يقتحم المجتمع الرفيع ، وينعم بكل ما فى الحياة من متاع وبذخ ، ويصل الى مجالسة الملوك والأمراء والعظماء من كل ضرب ؛ ألم يجالس لويس الخامس عشر وفردريك الأكبر ، والامبراطورة كاترين ، والبابا ، وفولتير ، وغيرهم من أكابر العصر ؟ ثم نراه فى كهولته شريداً بائساً يتقبل فى سبيل القوت مضض المهانة والمذلة ؛ بيد أنه فى الحالين يحتفظ بقوة نفسه ، وأثرته ، وأمانيه ؛ ذلك أن كازانوفا كان فيلسوفاً يقصد إلى الحياة بأى الوسائل ، ولا يروعه أن يحقق متاعها بأى السبل ، ولم يكن المال فى نظره إلا وسيلة من وسائلها

وقد كان كازانوفا منذ نشأته رجلاً مثقفاً واسع المعرفة بالنسبة لمجتمع عصره ؛ وكان فى أواخر حياته يعتز بمواهبه العلمية والأدبية ويأنس سعادة عظيمة فى اطلاق العنان لقلمه ؛ ولم تكن المذكرات كل ما يكتب ، فقد كان يتصل بالكاتبة بجماعة من أعلام عصره ، وكانت له آراؤه الخاصة فى أحوال العصر وأحداثه ؛ وكان يسخط على الثورة الفرنسية ويعتبرها حركة جنونية وقد كتب برأيه الى روبسبيير فى رسالة مستفيضة

والخلاصة أن كازانوفا ، كان رغم رذائله ، شخصية عجيبة ؛ وكانت حياته صورة صادقة للعصر الذى عاش فيه ، وهى من هذه الناحية تستحق التحليل والدرس ؛ ولقد كان لهذا المغامر المرح أصدق سلف وشبيه فى مواطنه بنفونوتو تشلينى ؛ فقد خاض كلاهما حياة مماثلة ، واشتركا فى كثير من الخلال والخواص النفسية ، وسطر كل منهما حياته بقلمه ؛ ولكن تشلينى كان علماً من أعلام الأحياء وبطلاً من أبطال الفن ؛ أما كازانوفا فلم يعش إلا لنفسه ، ولم يتبوأ فى مجتمع عصره سوى مكان ثانوى وكانت حياته مزيجاً من الأهواء الجامحة ، والأثرة العميقة ، والشهوات المادية ، والمرح العقيم [1] ؟

(تم البحث — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) نرى أن نشير هنا إلى أننا اعتمدنا فى كثير من نواحى هذا البحث بالأثر القيم الضخم الذى وضعه عن كازانوفا الكاتب الفرنسى الكبير مسيو Joseph Le gras وعنوانه :

L'Extravagante Parsonalité de Jaeques Casanova